

سوسيولوجيا الظاهرة الاستعمارية، الثورة الجزائرية نموذجا.

د. توفيق زروقي.

قسم العلوم الاجتماعية.

جامعة العربي التبسي - تبسة.

ملخص.

ما من شك أن محاولة تجريد الظاهرة الاستعمارية عبر مختلف الأزمنة الاجتماعية ومختلف الحضارات الانسانية ومختلف الأشكال التاريخية التي تلونت بها بهدف الوصول إلى أنماط سلوكية خاصة بها، إنما هي مغامرة أو مجازفة انتحارية للباحث ولكنها تبقى منهجيا وسوسيولوجيا ظاهرة يمكن إخضاعها إلى مخبر التجربة التاريخية الإنسانية أمّا محاولة البحث في الانعكاسات السوسيولوجية لها على المجتمعات من حيث بنيتها الاجتماعية والثقافية وتطورات ذلك على حركية المجتمع أو ذاك، تبقى محاولة واردة، وترمي هذه الورقة البحثية إلى أن تفتح المجال من الناحية السوسيولوجية أفقا بحثيا طالما جانبته الدراسات التاريخية وطاردته القراءات السوسيولوجية محاولة فهم المجتمعات على ضوء البعد التاريخي لها.

Résumé:

Il n'y a aucun doute que vouloir étudier le phénomène colonial de façon abstraite à travers les différents temps sociaux et les différentes civilisations humaines et formes historiques qu'elles ont pris dans le but d'arriver à des modèles et schémas comportementaux propres à lui est un risque « suicidaire » pour le chercheur, mais il reste méthodologiquement et sociologiquement un phénomène qu'on peut soumettre au laboratoire de l'expérience historique humaine, tandis que faire des recherches sur ses impacts sociologiques sur les populations du point de vue de leurs structures sociales et culturelles et l'effet que cela pourrait avoir sur la dynamique de telle ou telle société, reste une initiative possible. Cette feuille de recherche vise à donner à ce domaine du point de vue sociologique, un horizon de recherche qui a été longtemps évité par les études historiques et les lectures sociologiques en essayant de comprendre les sociétés à la lumière de leur dimension historique.

مقدمة:

إن السياسة الإجرامية التي اتبعتها الاحتلال الفرنسي ليست تلك التي تشخص فيها الأبصار والمتعلقة بالأرواح وزهقتها وإن هي مازالت حية ترزق، بل إن الذي لا يمكن أن تشخص له أي عين هو تلك السياسة التي ارتبطت بطمس الهوية والثوابت الوطنية تلك السياسة التي اتبعت سياسة الأرض المحروقة في الميدان وسياسة الحرب النفسية والسوسولوجية التي أنتجت تحولات في بنية المجتمع الجزائري بدعوى نقله من البداوة إلى الحضارة عن طريق الأعمال الإجرامية التي كانت تقضي نخب أولئك الشهداء، والتي كانت تقضي إلى جانب ذلك بتهجير ونفي المواطنين من مكان إلى مكان من بيئة إلى بيئة ومن دولة إلى دولة أخرى، فكيف لا يتأثر البناء الاجتماعي للريف وللأسرة، للعرش وللقبيلة، للمدينة وللمجتمع الجزائري ككل؟.

بل يضاف إلى جانب ذلك سيكولوجية الفرد الجزائري الذي عايش حيثيات الجريمة والتعذيب وجميع أشكال الإبادة، هذا هو ذلك الجانب الذي يستعصي على رجال القانون متابعته أو معالجته، إنه الضرر المعنوي، كيف يتسنى إثباته وكيف الطريق لمتابعة من ارتكبه قانونيا؟ وإننا هنا نود أن نذكر من خلال هذا القول بأنه إذا كان قد استعصى علينا متابعة مجرمي الإبادة والتعذيب إبان الاحتلال والأدلة المادية مازالت ماثلة للعيان، وكذلك آثار القنابل النووية وتجاربها مازالت تحصد الأرواح إلى جانب الألغام التي مازالت مزروعة ببعض المناطق الحدودية للبلاد (خطي شال وموريس)، بل إن بالمقابل هناك تعنت للمحتل حتى هذه اللحظة (قانون تمجيد الاستعمار)، فكيف يمكننا الحديث اليوم عن هذه الأشكال من التبعات والأضرار النفسية والاجتماعية والتي لحقت بالفرد وبالمجتمع؟.

1. سوسولوجية الظاهرة الاستعمارية: (فرق تُسد).

ولذا فإن هذا العمل لا يعدو أن يكون إلا محاولة لرصد هذه الأشكال وإثبات وجودها بالأدوات التحليلية الممكنة بالاستعانة ببعض المعطيات السوسيو-تاريخية الخاصة **بالظاهرة الاستعمارية** بوصفها ظاهرة عالمية متجددة وبعض المعطيات ذات نفس الطابع والخاصة بالحالة الجزائرية، لكن قبل أن نلج هذا الموضوع من الزاوية السوسولوجية، لابد من التذكير بأن الظاهرة محل التحليل هنا، هي ظاهرة قديمة قدم الإنسان، إذ يقول في هذا السياق الدكتور جمال حمدان في دراسة حول الظاهرة بأنه: "ومع تطور المجتمع وزيادة الارتباط الإيكولوجي عضويا ومجتمعيا بين الجماعات والأقاليم، ومع اطراد نمو الدولة كشكل سياسي، تأخذ الحركات البشرية بالتدرج اتجاها أوضح نحو الاستعمار، الاستعمار بمعنى سيطرة منظمة لجماعة على جماعة أخرى، ويمكننا عبر تلسكوب التاريخ أن نرى العالم القديم في فجره المكتوب يتألف من سلاسل مرصعة كالموزايكو من الصراعات المحلية الصغيرة أو الضيقة في مداها وحدودها الجغرافية، وأغلبها وأخطرها لا يخرج عن معادلة بعينها محددة هي (الصراع بين الرعاة والزراع)"¹، والذي وإن كانت دراسته هذه دراسة مهمة، بحيث بسّط وحلل فيها الظاهرة الاستعمارية من خلال تعقب أشكالها تاريخيا وأشكال توسعاتها جغرافيا، إلا أننا لا نتفق معه في بعض التفاصيل، وعلى وجه أدق هنا ما ذهب إليه في تصنيفه للأنماط الاستعمارية إلى نمط لاتيني ونمط ساكسوني، إذ يتميز في نظره النمط اللاتيني بإضافة المستعمرين إلى المواطنين الأصليين بدون إبادة كما في أمريكا اللاتينية أو في الجزائر، وهذا غير صحيح، فكل الحقائق وإن كانت تدل على أن المستعمر الفرنسي كان يأتي بالمعمرين وإضافتهم إلى الجزائريين، إلا أن هذا لم يدفعه إلى عدم ممارسة الإبادة، بل بالعكس فكل حقائق الحقبة الاستعمارية تؤكد وتدلل على وجود إبادات جماعية قام بها المحتل، ولأدل على ذلك أحداث الثامن ماي 1945، وأحداث نهر السين، وإلى غير ذلك من الحقائق والوقائع التي تُفند هذا التعبير.

ومن هنا وجب الإشارة إلى أن التحليل السيكولوجي للشخصية الجزائرية إنما يظهر أن هناك الكثير من الآثار النفسية الناجمة عن تلك الجرائم والإبادات وعن سياسة نهب واستصدار الممتلكات والتهجير وتفكيك بنية **العائلات الممتدة** والقرى القبائل الجزائرية، بحيث أن المحتل سلك طريقا وحشيا طريق **الجريمة والإرهاب** ولمّا لم تنفع سياسة القتل والإبادة راح ينتهج

سياسات اجتماعية ونفسية أقل ما يقال عنها أنها توصف بالعمل على تشريد الفرد الجزائري من خلال العمل على اجتثاثه من بيئته الاجتماعية والنفسية والثقافية والاقتصادية، وفي هذا السياق يقول بيير بورديو (Pierre Bourdieu) الذي كان جندياً يؤدي الخدمة الوطنية بمنطقة القبائل والذي أصبح عالم اجتماع الآتي: "الوضعية الكولونيالية والحرب أخضعت المجتمع الجزائري إلى اجتثاث ثقافي حقيقي، التجمعات السكانية، الهجرة الريفية والوحشية الاستعمارية عجلت وأدت إلى ترسّب وتعميق حركة التفكيك الثقافي في نفس الوقت امتدت إلى مناطق كانت محمية نسبياً، لأنها كانت بعيدة جزئياً عن المساعي الاستعمارية، وهي الكتل الجبلية للمنطقة التليّة، كونها تجربة كارثية لعملية جراحية اجتماعية، فقد قضت الحرب على حضارة لم يعد ممكناً التحدث عنها الآن إلا في الماضي"².

إن التجربة الاستعمارية حسب ما يؤكده بورديو وهو العارف بأحوال الاستعمار كونه كان جندياً من جهة والعارف بالمجتمع كونه عالم اجتماع معاصر من جهة ثانية تصطبغ بصبغة عنصرية، تقوم على أساس الاعتقاد بدونية الآخر، إنها عنصرية لا تقوم على أساس اللون أو العرق وإنما تقوم على أساس ثقافي محض بالنسبة إلى المجتمع الجزائري، حتى وإن كانت باقي الصيغ التي أخذتها الظاهرة الاستعمارية في العديد من دول العالم ولا سيما دول إفريقيا على انتشار واسع، وهذا ما يجعلنا نطرح التساؤل حول إمكانية وجود خصائص عامة تتميز بها الظاهرة الاستعمارية؟

ولمعرفة ذلك لابد من استقراء الظاهرة الاستعمارية هنا في مخبر التاريخ الإنساني ومن ثم تتبع أشكالها واستنتاج بعض خصوصياتها الثابتة في سجل تطورها والذي يمكن من خلال ملاحظة هذه الظاهرة، فالملاحظة التاريخية هنا تؤكد في كل مرة منذ عهد الإمبراطوريات القديمة، أن كلها كان يسعى إلى التوسع على حساب الآخرين، ومن ثم إخضاع الشعوب والدول إلى دائرة نفوذها، حيث راحت جيوش ألكسندر الكبير تعيث فساداً وقتلاً من مقدونيا إلى الهند، وعلى نفس الشكل ذهب جنود جنكيز خان وتيمورلنك وهولاكو وسط معظم بلدان آسيا يقتلون ويبيدون كل من وقف في طريقهم، وفي أوروبا وتحت سلطة الكنيسة المسيحية أباد الأسبانيون السكان الأصليين للقارة الأمريكية بعد أن اكتشفها كريستوفر كولومبس، ونجح نهمهم الإنجليز بعد ذلك، كما انتهج المد الاستعماري الأوروبي نفس السياسة لإخضاع شعوب آسيا وإفريقيا وأمريكا اللاتينية، وذلك من خلال ممارسة أقصى أنواع العنف والإرهاب، ولم ينشأ على هذه الممارسات القرن التاسع عشر إذا استمرت أشكال الإبادة في أكثر من مكان في العالم، فقام هتلر بإبادة اليهود والسلاف والشيوعيين والأسرى الروس بين (1938-1945) ما يقارب 6 ملايين إنسان، الأمر نفسه قام به ستالين قبل ذلك (1932-1933)، حيث أباد سبعة ملايين أوكراين بالتجويع حتى الموت، وأباد الاستعمار الفرنسي في الأحداث الثامن ماي 1945 حوالي 45 ألف شهيد والتحق بهم مليون ونصف مليون شهيد (1954-1962)، وما هي الآلة الاستعمارية لم تتوقف إلى غاية اليوم، فما الاحتلال الأمريكي الجديد للعراق 2003 إلى غاية يومنا هذا، وما الحرب الإسرائيلية على غزة بعيدة عن تاريخ اليوم بما يتعدى الألف شهيد في واحد وعشرين يوماً، ومن ثم ألا يمكن أن نتساءل عن تجدد الاستعمار بشكل من الأشكال أمام تجدد هذه الصور من حين إلى ذاك، ومن هنا أو هناك؟.

وعلى ضوء هذا الاستعراض السريع يتأكد أن الظاهرة الاستعمارية ظاهرة قديمة وهي وضارية في عمق تاريخ البشرية، وفي كل مرة تعيد إنتاجها حضارة ما عندما تتحول إلى سلطة استعمارية تهدف إلى تقويض مقومات المجموعات الإنسانية والاجتماعية التي ترى فيها سلطة مضادة لها، فيما ترمي إليه من تحقيق المصلحة الفردية لهذه السلطة أو الدولة، ومن ثم تلجأ إلى إبادة مختلف الأشكال والوسائل المتاحة لها وفي هذا السياق يقول (رافائيل ليمكين 1900-1953) في تعريفه لمفهوم الإبادة الجماعية: "هي ممارسة قديمة في تطورها الحديث، وتتضمن إجراءات طويلة الأمد تهدف إلى تدمير المقومات الأساسية لحياة مجموعات قومية"³، لكن الأمر الذي لا بد من تأكيده هنا هو ليس أنه هناك بالضرورة عنصر التهديد للسلطة الاستعمارية من طرف الجماعات

القومية الأخرى أو أحدها، فكثيرا ما قامت توسعات وإبادات لهذه الجماعات دوغما وجود لأي تهديد منها، وإنما لوجود تهديد من داخل تلك السلطة ومن ثم تلجأ إلى تحويله إلى خارجها، من أجل تأجيل الصراع الداخلي الذي يهددها من الداخل كحل يبدو لنا ظرفيا، لأنه سرعان ما يعود من جديد إلى الظهور، وإذا ما قامت السلطة الاستعمارية باحتلال المجموعات التي سواء كانت ترى فيها تهديدا لها أو ترى فيها زيادة لسطوتها واتساعا لنفوذ سلطتها وامتدادا لمساحتها ومن ثم ضمانا لبقائها وزيادة لطول عمرها من خلال نهب ممتلكاتها ومواردها، وذلك بالطبع دوغما رغبة منها في قيام سلطة محلية مناوئة لها كشكل من أشكال المقاومة أو الثورة والتي لا محالة من الناحية التجريبية التاريخية أن تقوم وتكون بالضرورة هناك جماعة تحاول رد السلطة الاستعمارية بشكل من الأشكال وصديها ضد انتهاكها لمقاومتها ومواردها، وإزاء ذلك تعتمد السلطة الاستعمارية على توظيف الإبادة ومختلف أشكال الجريمة من قتل وتعذيب واغتصاب وتشريد وحرق، ناهيك عن الأساليب القمعية المعروفة والتي لا تغيب عن الذهن، فإنما تستعمل أساليب موازية قصد امتصاص مثل هذه المقاومة أو الثورة من خلال العمل على تقسيمها وتفكيكها من أجل القضاء عليها جزئيا واستنزاف قوتها.

وبالتالي فإن الشكل الموازي دائما والملازم للظاهرة الاستعمارية هو تلك الممارسات التي تصحب **العنف المادي** والتي يمكن أن نصلح على تسميتها **بالعنف الرمزي** مثلما سماها بيير بورديو، والذي يقصد به كل نظام إيديولوجي يحاول فرض نفسه على **نظام رمزي قيمي** آخر بالقوة حتى وإن كان الأمر لا يتعلق بطرفين يوصفهما مستعمر ومستعمر، حيث يقول: "إن أي نفوذ يقوم على **العنف الرمزي** أو أي نفوذ يفلح في فرض دلالات بوصفها دلالات شرعية حاجبا **علاقات القوة** التي تؤصل قوته يضيف إلى علاقات القوة هذه، قوة الذاتية المخصوصة أي ذات الطابع الرمزي الخاص"⁴، وحتى وإن كان بيير بورديو هنا ليس في سياق الحديث عن النظام الكولونيالي وإنما جاء كلامه هذا في سياق شرح العلاقة بين النظام التربوي الذي تفرضه الدولة بوصفه نظاما رمزيا مفروضا على طبقات وفئات اجتماعية معينة فإنه يمكن تعميم كلامه هذا على أحد أهم **ميكانيزمات النظام الاستعماري** في تعاطيه مع النظام الثقافي الذي يعمل على **اجتثاثه**، إذ فرض الاحتلال الفرنسي طيلة 130 سنة مجموعة من المفاهيم، والرموز والايديولوجيات، بل قام بفرض النظام التربوي بالقوة والتعسف من خلال استئصال النظام التربوي الذي كان قائما آنذاك على التعليم الديني خاصة، إلى جانب مدارس جمعية العلماء المسلمين التي ظهرت مع ظهور الجمعية كمحاولة **لِمُأسَستِ** الفعل التربوي الذي أخذ في التراجع مع بداية الاحتلال بكل قوة وتعسف محاولا قلب الثقافة المحلية وتزييفها لصالحه بدءاً من تدريس اللغة الفرنسية كلغة رسمية واستدماج قِيَم مزيفة، أي كاعتبار الجزائر أرض إقليمية تابعة للدولة المحتلة فرنسا، ومن ثم عمد أيضا إلى تحويل المساجد إلى كنائس وإسطبلات في محاولة عبثية لفرض النمط القِيَمي الخاص به بالقوة، خاصة في محاولته مقايضة الخبز بالدخول في المسيحية، بل يكاد هذا العنف أحيانا كثيرة يخرج من دائرته الرمزية إلى الحقل المادي للفعل من خلال التركيز بهذا الفعل على الأطفال من خلال مساومتهم على دينهم وتعليمهم المسجدي بقطع الحلوى تارة وتارة أخرى بقطع الخبز.

ولم تكن هذه السياسة بديلة عن قمع الثورة وإنما أتت قبل ذلك بكثير إذ أنه وعشية احتلال الجزائر بعد شهرين بالضبط من بداية الاحتلال "أصدر المحتل أمر في: 08 سبتمبر 1830 يقضي بالاستيلاء على الأوقاف الإسلامية التي تمول الخدمات الدينية والثقافية والتعليمية والاجتماعية للمسلمين الجزائريين على الرغم من الاتفاق المعقود بينهم وبين الحكومة الجزائرية في 04 جويلية من نفس السنة، حيث تعهدوا فيه باحترام ملكية الجزائريين وحريةهم الدينية"⁵. وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على تلك السياسة المقصودة. ألا وهي اجتثاث المجتمع من أصوله التربوية الاجتماعية والثقافية، حتى يبقى دوما تابعا للمجتمع المورد للثقافة المراد التأسيس لها بكل رموز التعسف والممارسات اللامؤسسية لا في إطار القانون الدولي ولا في إطار التقاليد والأعراف الاجتماعية للحضارات الإنسانية، بل إن الجنرال (بيجو) قد عمد إلى جمع الأطفال الجزائريين اليتامى، وكان يأتي بهم إلى القسيس فيسلمهم له

قائلا: "حاول يا أباي أن تجعل منهم مسيحيين، وإذا فعلت فلن يعودوا إلى دينهم ليطلقوا النار علينا"⁶، وقد تولى الكاردينال (لافيجري) مسؤولية تنفيذ تلك السياسة، إذا فحن هنا أمام مشهد من مشاهد الاجتثاث، إنها ليست سياسة تنصير وحسب وإنما هو اجتثاث ديني، عمل على اقتلاع الأطفال من ثقافتهم الدينية وتنشئتهم تنشئة مسيحية، ولكي تكون الصورة مكتملة عن هذا الاجتثاث الديني في شقه المتعلق بالأفراد فلا بد من ذكر ما تعلق منه بمجالس القضاء، بحيث كان (دي قايدن) وكل أنصار الجمهورية الثالثة يطالبون بإلغاء منصب القضاء الإسلامي والأحكام التي يصدرها القضاة المسلمون طبقا لتعاليم القرآن والسنة النبوية الشريفة، كما كانوا يعارضون بقاء الكتاتيب والزوايا⁷، وإن دل هذا الأمر أيضا على شيء فإنما يدل بصورة واضحة عن محاولة طمس كل معالم الشخصية الجزائرية والهوية الوطنية للشعب الجزائري عن طريق محاربة كل رموز ثقافته وتاريخه سواء تعلق الأمر بالأشخاص أو بالأنظمة الحاملة لهذه المعاني والرموز، ففي هذا السياق عمد المحتل إلى محاربة المدرسة الجزائرية بإطلاق المدرسة الفرنسية، والتي اعتبرها عبد القادر جغلول في كتابه (تاريخ الجزائر الحديث) -الذي يعتبر دراسة سوسيولوجية- "تعد غير مباشر، فقال: "إنه تعد غير مباشر، فترسيخ المدرسة الاستعمارية هو في الحقيقة سلاح ضد كل ما تبقى من النظام التربوي والديني القديم، كما أنه يستخدم كتبرير لإغلاق الزوايا... لم تستبدل المدارس في معظم الأحيان، إن توطين الجهاز المدرسي الاستعماري لا ينتج فئة هزيلة من المفرنسين، بل إنه ينتج أيضا، وخاصة عددا معتبرا من الأميين (الأميين المزدوجي اللغات)"⁸، هذا الذي لاحظته عبد القادر جغلول، والذي لازلنا إلى غاية اليوم نلمس له أثارا عميقة في المجتمع الجزائري وبنيتة، فما زال الرائي من العامة من الناس من يرى أن كل من يتكلم اللغة الفرنسية هو بالضرورة مثقف أو عالم، بينما يعتبر أن هذا الوشاح اللغوي هو غطاء لحقيقة أخرى، لكن ودون أن نقع في خطأ التعميم المطلق مازال إلى غاية اليوم من يدعو إلى الفرنسية في المناهج الدراسية و المقررات بدعوى أن اللغة الفرنسية غنيمة حرب، في الوقت الذي أخذت اللغة الفرنسية تتراجع في تراتبيتها بالنسبة إلى الإنتاج المعرفي بها، وهذا إن دل على شيء فإنه يدل على **الاغتراب العلمي والثقافي** الذي نعيشه، والذي نجحت في تكريسها وبلورتها المدرسة الفرنسية، التي كانت في واقع الأمر تشكل خطرا ثقافيا متزايدا لولا جهود بعض من الجزائريين الأفاضل كابن رحال* في البداية الذي عرف بموقفه اتجاه مرسوم 1883 والجهاز المدرسي الذي يتضمنه، حتى وإن كان موقفه ملتبسا، بحيث اتسم بازدواجية قيمية، فهو من جهة يؤكد فكرة الاندماج في الثقافة الفرنسية ومن جهة أخرى يؤيد فكرة مقاومة ترسيخ الجهاز المدرسي الفرنسي، وكأنه يحاول التركيب بين فكرة معارضة الجهاز المدرسي الفرنسي وفكرة إحداث نهضة ثقافية في المجتمع الجزائري، من خلال التعليم، وفي هذا السياق يقول عبد القادر جغلول: "وإذا كان ابن رحال من مؤيدي إعادة بناء **المجال الثقافي** والجهاز التربوي خاصة فهو يؤيده لكن بشرط أن يدعم هذا البناء وحدة المجال الثقافي الجزائري، وألا يؤدي إلى شبكات تربوية غير متجانسة، ولا سيما أن إعادة البناء ينبغي أن تكون من طرف الجزائريين أنفسهم في صالح نهضتهم الثقافية"⁹، ويوضح هذا القول هنا أو يطرح بوضوح مسألة محاولة الاستفادة من المستعمر بالوسائل المتاحة دون الوقوع في أهدافه التغريبية، والإستيلاية، كما يضاف إلى هذه الجهود جهود الزوايا التي شكلت هي الأخرى حجر عثرة أمام الاستعمار، فهذا (أوكتاف دوبون) وزميله (اكزافييه كوبولاني) في مؤلفهما الفرق الدينية الإسلامية (Les confréries religieuse musulmanes) يقولان بأنه: "في الأماكن التي كانت لفرنسا الفكرة السخية لفتح مدارس ابتدائية لصالح الأهالي (الأنديجينا) نلاحظ الكفاح الصامت للطلبة، ومقاومة الأولياء لإعطاء المعرفة لأولادهم وأمثلة كثيرة من السهل إيجادها في الحياة اليومية العادية للأهالي والأنشطة اليومية لإدارتنا"¹⁰، بحيث يقر المؤلفان صراحة بالدور السياسي للزوايا في صد انتشار سياستهم الإجتثاثية ضد كل ما يمت بصلة للحدود

* محمد بن رحال: كتب ملاحظاته حول مرسوم 1883 عام 1886، وبقيت غير منشورة وأعيدت أفكاره في مقالة بعنوان دراسة حول تطبيق التعليم الحكومي في البلدان العربية، والذي نشر عام 1887 من طرف جمعية الجغرافيا وعلم الآثار في وهران، كما كان له دور سياسي هام عام 1925، بعد انتخابه نائبا لرئيس المجلس العام بوهران.

الثقافية للمجتمع الجزائري باستثناء عدد قليل من الزوايا، وهو الخط الذي انخرطت فيه جهود جمعية العلماء المسلمين بعد تأسيسها سنة 1931، ولم يكتفِ المحتل بهذه السياسة بنفس الطريقة بالنسبة إلى كل فئات المجتمع الجزائري، بل حاول التركيز على بعض المناطق من الجزائر بصفة خاصة بممارسة سياسة معينة بحكم عزلها عن فعل المقاومة أو بحكم زرع سياسة التفرقة والتشتت أو التفكك، فراح يوظف أخصائى الوسائل في زرع مثل هذه السياسات، ولكن كان قاسمها المشترك هو فعل الاجتثاث بكل أشكاله، وهي جريمة بحق لازلتنا إلى غاية اليوم نلاحظ آثارها كونها لم تكن سوى سياسة تمييزية تهدف إلى تفكيك البنية الاجتماعية للمجتمع الجزائري من خلال زرع فروقات عنصرية إثنية بين التكوينات الاجتماعية ذات الطابع القبلي في الجزائر، "بحيث اتجهت سياسة الكيد الاستعماري إلى أبعد من ذلك، إذ بدأ التفكير في كيفية ربط الجزائريين المتفرنسين الذي يطالبون بتطبيق سياسة الإدماج التام ولائكية الدولة عن طريق ما يسمى بـ(السياسة القبائلية)، أي أن فرنسا بعد فشلها في خطة المدارس المختلطة والمدارس الفرنسية التفتت إلى القبائل الكبرى وبدأت تركز جهودها هناك لفرنسة سكانها وتنصيرهم قصد تشتيت وحدة الأمة الجزائرية"¹¹، وإذا كانت هذه الصورة تنم عن محاولة تفكيك المجتمع الجزائري وزرع الشك فيه، فكيف يمكن تسمية هذه الجريمة إلا كونها جريمة ثقافية محضى، إن ذلك لا يمكن اعتباره سوى إبادة للتاريخ المشترك والثقافة الوطنية المشتركة للشعب الجزائري على غرار الإبادة التي تمت في حق أرواح الشهداء.

2. سيكولوجية الظاهرة الاستعمارية: (سأكون أكثر جُرماً من المجرم).

وفيما يخص بعض الخصائص السيكولوجية للظاهرة الاستعمارية لابد من ذكر ما ذهب إليه (غوستاف لوبون) هنا، حيث قال في فصل الجماعات الجارمة من كتابه (روح الاجتماع): "تصدر الجرائم عن الجماعة غالباً بسبب تحريض قوي، ويعتقد الذين ارتكبوها من أفرادها أنهم قاموا بواجب كان مفروضاً عليهم، وهذا ليس شأن الجناة في الأحوال الاعتيادية وتاريخ جرائم الجماعات يوضح ذلك بأجلي بيان"¹²، إن هذا الكلام يفسر جانباً نفسياً هاماً من بشاعة الجرائم التي ارتكبت في حق الشعب الجزائري، فإذا يقدم لنا بنية نفسية غاية في التدقيق للجماعة المجرمة، ولذا فإنه كثيراً ما كنا نقف على منظمات إجرامية إرهابية داخل النظام الكولونيالي، فبصرف النظر عن كونه قصد إنشائها أم لم يقصد إلا أن تصورها على أساس أنها عبارة عن بنى اجتماعية كانت توفر جوّاً من المجال النفسي الذي كانت تعمل فيه، إذ يعتبر عالم النفس الألماني، كيرت ليفين (1890-1947) مؤسس نظرية المجال النفسية، "أن الأفراد يختلفون بينهم باختلاف المجال الذي يتواجدون فيه، أي أن السلوك له علاقة بالمجال الموجود وقت حدوثه، فالأفراد الذين يعملون مع السلطة التوتاليتارية أو من هم ضمن حلقاتها الرئيسية، يتطبعون بصفات خاصة، وتؤثر مجالات السلطة في إحداث تغيرات في سمات شخصياتهم وخاصة في الأشخاص الضعفاء الذين يتسمون بسمات الشخصية المتقلبة والانتهازية"¹³، ونضرب أمثلة عن مثل هذه الجماعات فنذكر مثلاً المنظمة الخاصة (O.A.S)، التي قامت بأعمال إجرامية فضيعة، أو جماعات المضلين المختصة التي كانت تضم جنوداً فرنسيين بإمكانهم في أي لحظة القيام بأي عمل إجرامي كالقتل أو الاختطاف دونما أن تكون على صلة في علاقتها بالجيش الفرنسي من الناحية البنيوية، "إذ عُهد بحراسة الأمن بالجزائر في تلك الأيام إلى المضلين التابعين للجنرال (ماسو)، وهؤلاء ليسوا جنوداً نظاميين، ولكنهم من الشباب الصغار الذين أخذوا ليؤدوا خدمتهم، فلقد ضرب المظليون بضراوة وبوحشية في المدن الجزائرية الكبيرة وفي القواعد بالسهول والجبال"¹⁴، هذا بالنسبة للجماعة الجارمة، أما بالنسبة للضحية فنجد أنها تقع تحت طائلة الارتباك والحيرة وفقدان الإنسانية والأمل حتى يستسلم الأفراد لهذه الجماعات، بحيث اعتبر فرانتز فانون (Frantz Fanon) الاستعمار عملية نهب اقتصادي ووحشية وظلم سياسي بل عملية

خصي نفساني ووصف سيزير الاستعمار بأنه عملية تحويل الإنسان إلى جماد، ووافقه قانون على ذلك مضيفاً أنه لكي يمكن استعباد الناس من الضروري صرفهم عن إنسانيتهم من خلال إشاعة الحيرة والارتباك بينهم بصورة منظمة¹⁵، الأمر الذي جعل أفراد المجتمع يميون حياة نفسية أقل ما يقال حولها أنها حوّلت الفرد الجزائري من كائن سوي إلى كائن غريب عن محيطه، إذ بحلول سنة 1959 كان قد أكره نحو مليوني شخص، أي ما يقرب من نحو ربع مجموع السكان على هجر قراهم لكي يقطعوا صلات الأفراد بعضهم مع بعض.

إنّ هذه البنية النفسية للجماعات الإجرامية تقابلها على مستوى النظام الاحتلالي بنية اجتماعية أخرى، بحيث كان المحتل ينقسم إلى بنى محددة مشكلة من البرجوازية والتي كانت تهيمن على دواليب الحكم في الشعوب المستعمرة والتي كانت تؤدي دور الوكيل للطبقة البرجوازية الفرنسية، فحاولت أن تشرك في وظيفتها مجموعة من العاملين في تنفيذ الأوامر والقيام بارتكاب جرائم القتل والإبادة الجماعية، فهي لا ترتكب الجريمة بنفسها وإنما تخطط لذلك وتجعل من يقع أسفل الترتيب أو النظام الكولونيالي يقوم بالتنفيذ، دونما وعي وإدراك من الجماعة الجارمة الفاعلة أو المنفذة، وهذا ما قد تشترك فيه الظاهرة الإجرامية على العموم والظاهرة الاستعمارية على الخصوص فلا هتلر قام بنفسه هو بالحرقة اليهودية ولا الفاشي (موسيلني) ولا (جورج بوش) الابن ولا (إيهود أولمرت) هم من قاموا بتنفيذ الجريمة والاحتلال بأنفسهم، وإنما قاموا بالتخطيط وإعطاء الأوامر ونفذ غيرهم من الجماعات التي تشكل الهرم البنائي لصيرورة الفعل العدواني والظاهرة الاستعمارية، إن هذا القاسم المشترك الذي يدفعنا إلى تسليط الضوء من هذه الناحية على بنية الظاهرة الاستعمارية في المجتمع الجزائري على مستوى الفرد وعلى مستوى المجتمع، إذ أنه في كثير من الحالات نجد أن المستعمر الفرنسي لم يكتفي بتوظيف جماعات جارمة فرنسية فقط، وإنما حاول خلق بنى اجتماعية بديلة تقوم هي الأخرى بوكالة للجماعات الجارمة الفرنسية وهي من المجتمع الجزائري نفسه. وهنا نقصد بالحديث (جماعات القيادة)، بحيث وظف النظام الكولونيالي هذه الآلية لما رأى أن هناك محدودية في أداء الجماعات الجارمة التابعة له، فأراد خلق هذه الأخيرة بغية التغلغل والوصول إلى الجماعات المقاومة والجماعات الفدائية من أجل كبح فعل الثورة، وذلك مقابل امتيازات لهذه الجماعات وأبنائها، وهنا نلاحظ مراهنة الجماعات بوصفها بنى اجتماعية وسيطة تحقق سلطته ونفوذه في زمن الثورة وبعد زمن الثورة، بحيث مازالت هذه الجماعات إلى غاية اليوم تطالب بمجموعة من المطالب تستعملها الجماعة البرجوازية الفرنسية كجماعة ضغط ضد الجماعة البرجوازية الوطنية التي ظهرت بعد الاستقلال من جهة وكأحد أساليب استمرار بسط القوة والنفوذ على المجتمع المستعمر، من أجل ضمان استمرارية التبعية والاستعمار بشكل خفي، وهذا الذي يؤكد صحة ما ذهب إليه بيير بورديو في مسألة إخفاء علاقات القوة والنفوذ كشرط أساسي لاستمرار الهيمنة.

كما يمكننا أن نستنتج من خلال ذلك أن السلطة الاستعمارية بوصفها سلطة استبدادية فهي دائماً تسعى إلى توريث الآخرين و إغراقهم في حقل ممارستها، أي بمعنى أنها تعمل على إشراك عدد كبير من الأفراد والعمل على إيقاعهم في دائرة المسؤولية والولاء للنظام الاستبدادي الاستعماري، وذلك في حقيقة الأمر من أجل محاولة تأمين نفسها وإطالة العمر الزمني لممارستها الاستبدادية، وهذا ما نقف عليه كخاصية أخرى مشتركة لدى النظم الاستعمارية والإمبراطورية التي تهدف إلى مزيد من السلطة والنفوذ، ذلك أنها تعي جيداً أنها كلما ازدادت دائرة التوريث للأفراد والفئات الاجتماعية الأخرى كلما أبعدت ثورة الجماهير بوجهها، وهذا إلى جانب دائماً ممارسة العنف والإرهاب ضد فئات المجتمع الأصلي التي لا تعترف بهذا النظام، وبذلك فهي في حقيقة الأمر إنما تعيش بصفة واعية أو غير واعية خوف دائم ومستمر، ومن ثم يكون منطلق إشراك غيرها في جرمها والعمل على انخراط المزيد من الأطراف أو الوكلاء في عنفها وإرهابها وقراراتها الجائرة، بغية تحصيل أكبر وقت من الممارسة الفعلية لهذه الجرائم، ومن ثم استمرارية الظاهرة الاستعمارية إلى أقصى ما قد تكون ولنا في إسرائيل أكبر دليل على ذلك.

3. الإنتاج الفكري حول الثورة الجزائرية (وشهد وشُهوّد من أهلها):

إن الأحداث التاريخية للثورة الجزائرية أو الظاهرة الاستعمارية و إن حاولنا تجريدنا لمعرفة بعض خصائصها، فإن لها أيضا استثناءات، فمهما حاولت السلطة الاستبدادية توريط غيرها في جرائمها إلا أنها لم تفلح مع كثير من الأفراد أو النخب، وهنا تدلنا بعض الانتاجات الفكرية لهؤلاء على مواقفهم اتجاه ممارسات هذه السلطة، وإن كان يعزى ذلك إلى اليقظة التي كانت يتحلى بها وعي هؤلاء وإلى الثقافة التي كانوا على جانب وافر منها، وبالتالي كانت مساعي النظام الكولونيالي لتجنيدهم في صفه بالترغيب أو بالتهريب إنما ضرب آخر من ضروب توكيد صحة مواقفهم من الظاهرة الاستعمارية ككل.

ونذكر هنا العديد من الكتابات التي سوف نحاول أن نقف على بعض هذه التجارب فقط على سبيل المثال وليس على سبيل الحصر، بحيث نذكر مثلا موقف الفيلسوف الوجودي جون بول سارتر سنة 1960، وهو الذي كان لا يعلن موقفه صراحة اتجاه النظام الكولونيالي إلى أن أبرق برقية تأييد ومساندة "الشبكة السرية" في محاكمتها بتهمة إجراء لقاء غير قانوني مع جبهة التحرير الوطني، فكتب يقول: "لا أظن أنه يوجد في هذا المجال مهام شريفة ومهام سوقية، أو نشاطات مخصصة للمثقفين وأخرى غير جدية بهم، فإن أساتذة السوربون أثناء المقاومة، لم يترددوا في نقل المراسلات وإقامة الاتصالات، ولهذا إذا طلب مني جونسون حمل حقائب إيواء مناضلين جزائريين، بحيث أقوم بهذه المهمة بغير أن أعرض حياتهم للخطر فسأقوم بذلك دون تردد، ولهذا أعتقد أن هذه الأشياء "يجب أن تقال، ذلك أن الوقت قد حان، إذ يجب على كل شخص أن يتحمل مسؤوليته"¹⁶، ولذا أتاه التهديد المباشر من طرف المنظمة العسكرية السرية بالقتل وتأثر لذلك سارتر خاصة وأن سنة 1961 كانت سنة لفقدان أحد أهم المساندين للثورة الجزائرية ضد السلطة الاستبدادية الفرنسية، بحيث فقد فيها سارتر أعز صديقين وهما المفكر والفيلسوف الظاهراتي (ميرلو بونتي) و(فرانتر فانون)، هذا الأخير الذي قرأ له وكان قد التقى به في إيطاليا، حيث قرأ له كتابه (معذبو الأرض) الذي عبر فيه فانون ليس عن مساندته للثورة الجزائرية وحسب و إنما جميع الحركات التحريرية في العالم، ذلك أنه عايش الثورة الجزائرية من خلال عمله كطبيب نفسي بمستشفى الأمراض العقلية بالبلدة وإثر معاينته لعدد من الحالات التي كانت تعيش حالة زُهاب نفسي Phobie واجتماعي جزاء عمليات التعذيب، هذه الحالات التي كانت أحيانا تأتيه بما عناصر جبهة التحرير الوطني، رفع على إثرها تقريراً للحاكم العام آنذاك للجزائر سنة 1956 يعلن فيه استقالته من وظيفته، بحيث ضمن تقريره هذا احتجاجا على السياسة الاستعمارية في الجزائر، وإثر ذلك مباشرة طرد إلى فرنسا، لكنه أثر العودة إلى تونس للعمل مع المنظمة الخارجية للجبهة آنذاك¹⁷، ويضاف إلى مثل هذه الشواهد عدة أمثلة تدل على الرفض الذي كانت فئة من الأنتيليجانسيا الغربية تمارسه بطريقة رمزية أحيانا وبصفة سلوكية واضحة في أحيان كثيرة، ولعل الأستاذ الجامعي (موريس أودان) أستاذ الرياضيات بجامعة الجزائر الذي خنقه بنو جلدته يبقى شاهد قوي على وحشية هذا المستعمر، وعلى وقوف نخبة من الفرنسيين أنفسهم ضد الجريمة الاستعمارية.

ومن خلال ما سبق يمكن أن نستنتج أن المحتل ارتكز على نقطتين أساسيتين في هدم البنية الثقافية للمجتمع الجزائري والتي كان لها عميق الأثر على البنية الاجتماعية بحيث انتهج أولا القضاء على التربية والتعليم ثم محاولة إنشاء المدرسة الفرنسية كبديل يضمن التحول الثقافي وأخير تفكيك الوحدة الوطنية تحت طائلة التمايز الثقافي واللغوي الذي عمل على إثارته وتوجيهه وفق ما يخدم أهدافه، ذلك هو رهان المحتل في حقيقة الأمر من أجل خلق ثقافة وسيطة بينه وبين الفئات الاجتماعية المقاومة، لاهي في واقع الأمر فرنسية محضة لأنه يعلم بأن ذلك الأمر غير ممكن عمليا، ولا هي جزائرية محضة لأن ذلك لا يخدم مصالحه الاستعمارية، أما من الناحية السوسولوجية فإن هذا التشكيل الاجتماعي عن طريق التعليم إنما يهدف إلى خلق فئة اجتماعية برجوازية تابعة للاستعمار الفرنسي تزيد من هيمنته الثقافية الاجتماعية واللغوية، بحيث يقول عبد القادر جغلل: "فالاستغلال الاستعماري يفترض في الحقيقة ترسيخ العلاقات الاجتماعية الرأسمالية وبالتالي هدم العلاقات الاجتماعية ما قبل الرأسمالية

واستخدام هذه العلاقات الأخيرة من قبل العلاقات الأولى¹⁸، ومن جهة أخرى فإن التعليم الفرنسي كان يهدف إلى خلق انتليجانسيا موازية ومتناقضة مع الأنتليجانسيا المحلية ذات المرجعية الوطنية الإسلامية وحتى في ظل هذا التعارض يمكنه ادخار وسائل انتشاره وهيمنته مادامت البرجوازية المحلية ذات المرجعية المدرسية الفرنسية أداة في يد هذا الأخير.

وهنا لا بد من تأكيد أن هذه الآثار التي تم تحليلها فيما سلف من هذا الموضوع ليست الوحيدة، بل إنها الآثار القريبة المدى والتي كانت مصاحبة لزمن الثورة، أما فيما يتعلق بالآثار البعيدة للظاهرة الاستعمارية فلا يمكننا الجزم بتأثير بعض العوامل الاجتماعية والاقتصادية في زيادة تنامي بعض الظواهر الاجتماعية في المجتمع الجزائري دون أن نضيف إليها البعد الرمزي في شقه المتعلق بالجانب السوسيو-تاريخي للظاهرة الاستعمارية والذي كان له امتداده في التأثير على تطور هذه الظواهر الاجتماعية، بحيث أن ما يعرفه اليوم المجتمع الجزائري من ظواهر كظاهرة الرشوة، ظاهرة الخرق، ظاهرة العنف بأشكاله، ظاهرة هجرة الأدمغة وظاهرة الاغتراب الثقافي والتربوي، إنما هي في حقيقة الأمر ظواهر مغيبة الجانب من الناحية السوسيو-تاريخية عن الدراسة العلمية، بحيث أن كل الدراسات الاجتماعية والنفسية اليوم تجتزئ هذه الظواهر وكل دراسة تتناول جانبا واحدا منها أو أكثر لكن دون إعطاء المتغير السوسيو-تاريخي حقه من الدراسة والبحث، "والذي نود أن نؤكد بهذا هو أهمية البعد التاريخي مدخلا إلى أية دراسة علمية جادة وعميقة لواقعنا السياسي والاستراتيجي المعاصر، وبغير هذا تبدو الحقائق مقتلعة والتعميمات -ربما- مبسطة مفتعلة، وتخرج الصورة كلها ولها سطح ولكن ليس لها عمق، ولهذا فنحن بحاجة حقيقية وملحة إلى دراسة كاملة متكاملة، أصيلة منظمة، لتاريخ الاستعمار في العالم من ناحية ولتاريخ الصراع الاستراتيجي من ناحية أخرى، وبغير هذا فلن نخرج بقوانين علمية أو شبه قوانين، ولن نختزل التاريخ في معادلات إقليمية موجزة مركزة ذات مغزى مثلما هي خفيفة الحمل في الذهن"¹⁹.

4. الشكلا لجديد للظاهرة الاستعمارية: (ما أشبه الأمس باليوم).

يقول دافيد كوت في تناوله لفكر فانون: "...ولكنه من الناحية الأخرى محق في التأكيد على أن الاستعمار هو أبعد ما يكون عن العمل الخيري، بل هو استغلال منظم يخلق شعورا قويا دائما من النقص في نفوس الشعوب المستعمرة"²⁰، ذلك ما نلاحظه اليوم، أثر نفسي عميق على مستوى الفرد الجزائري، مازال إلى غاية اليوم لم يتخلص من هذه الدونية الذاتية، ومادام الفرد الذي يتشكل منه باقي عناصر المجتمع ومؤسساته لم يكف عن هذا التفكير والذي لامناص منه إلا بقوة وعيه ويقظة فكره، فإن فرنسا لن تكف عن تمجيد ما قامت به مادام الأفراد والمجتمع يفكرون بهذه الطريقة بصفة واعية أو غير واعية، هذا من جهة وأما من جهة ثانية فإن هناك -على حد تعبير مالك بن نبي- مشكلة أخلاقية لدى الغرب، تكمن في عدم تمكنه من التخلص من هذه العقدة الأخلاقية التي تجعل منه لا يكاد مفارقة الممارسة الاستعمارية، حيث يقول مالك بن نبي: "لقد سيطرت على الحياة الدولية بكل أسف (إرادة القوة) التي لا تفارق حضارة القرن العشرين، فهي قانون للنفسية الغربية، قانون يسجل التأخر الخلقي لإنسان الغرب"²¹، ومن ثم فالمستعمرات الحديثة اليوم ما هي إلا امتدادا لهذا المنطق.

الخاتمة.

هذا عن المجتمع الجزائري أما عن المجتمع الدولي فيمكن أن نستنتج عن طريق مقارنة الظاهرة الاستعمارية بين الأمس واليوم، فنجد أن النظام العالمي اليوم في احتفائه ومبالغته باحترام الدولة الدينية الوحيدة في العالم وتحالفه معها ضد كل دولة أو خطر -حسب وجهة نظره- إنما يشبه تلك الصورة في ممارسته هذه، تلك التي كان عليها العالم تماما قبل 1789 تاريخ الثورة الفرنسية، فبينما كان التحالف آنذاك بين نبلاء العالم أو رجال الإقطاع ورجال الكنيسة، فإنه اليوم تحالف امتد على نطاق واسع، بل شمل كل العالم في خدمة رجال الإقطاع الجدد والدولة الدينية الجديدة، بل إنه تحالف زادت دائرته بعد أن كان داخل دائرة ضيقة وازداد

ضحاياه بعد أن كانوا فقط ضمن نطاق جغرافي محدود، فما أحوج عالم اليوم إلى ثورة أخرى ترفع ظلم الديكتاتورية الجديدة، من دون أن تكون هي الأخرى بدورها نواة لديكتاتورية من جيل جديد.

قائمة المراجعوالهوامش:

- 1- جمال حمدان، (استراتيجية الاستعمار والتحرير)، دار الشروق، بيروت، لبنان، 1983، ص13.
- 2- Pierre Bourdieu, (Sociologie de l'Algérie), que sais je ?, Editions Dahlab, 7eme éd, 1985, P123.
- 3- صلاح كيرومان، (الجذور السيكولوجية للجرائم الإبادة الجماعية)، منتدى إنسانيات، [متاح على الخط: <http://ensanyat.com/vb1/search.php?do=process>]
- 4- بيار بورديو، (العنف الرمزي، بحث في أصول علم الاجتماع التربوي)، تر: نظير جاهل، المركز الثقافي، 1994، ص 05.
- 5- نفس المرجع، ص44.
- 6- نفس المرجع، ص44.
- 7- صالح فركوس، (المختصر في تاريخ الجزائر)، دار العلوم، عنابة، الجزائر، ط1، 2000، ص 220.
- 8- عبد القادر جغلل، (تاريخ الجزائر الحديث، دراسة سوسيولوجية)، تر: فيصل عباس، دار الحداثة، لبنان، 1982، ص80.
- 9- عبد القادر جغلل، المرجع السابق، ص 89.
- 10- Octave Dupont et Xavier Coppolani, (Les confréries religieuses musulmanes), Libraire éditeur, Alger, 1897, p260.
- 11- صالح فركوس، المرجع السابق، ص221.
- 12- غوستاف لوبون، (روح الاجتماع)، تر: أحمد فتحي زغلل باشا، موفم للنشر، 1988، ص182.
- 13- صلاح كيرومان، المرجع السابق.
- 14- دافيد كوت، (فرنز فانون)، تر: عدنان كيالي، العربية للدراسات والنشر، لبنان، 1971، ص22.
- 15- Francis Jeanson, (Sartre dans sa vie), Le seuil, Paris, 1964, p217.
- 16- فرانتز فانون، (معدبو الأرض)، تر: سامي الدروبي، جمال الأتاسي، منشورات الفارابي، لبنان، 2004، ص12.
- 17- عبد القادر جغلل، المرجع السابق، ص 98.
- 18- جمال حمدان، المرجع السابق، ص08.
- 19- دافيد كوت، المرجع السابق، ص29.
- 20- مالك بن نبي، (فكرة الإفريقية الآسيوية في ضوء مؤتمر باندونغ)، تر: عبد الصبور شاهين، دار الفكر، سوريا، ط03، 2001، ص37.